كنا سبع جزر... صرنا بحرا عظيما

□ سهرنا حتى الفجر.

كنّا سبعة «شخوص» بشريّة.. لكنّ السهرة بدأت وكلّ «شخص» منّا عالم وحده منفصل عن الآخرين.. كلٌّ واحد منّا يلتفُّ على ذاته، ويعلك ذاته.. والمسافة بينه وبين الآخرين تتشاءب

قال:

ـ سهرنا، هكذا ليلة الواحد والعشرين من أيّام الملحمة ـ المأساة في لبنان.. كنّا ـ تلك الليلة ـ سبعة «أرقام» بشريّة غارقة في زبد المأساة.. كنّا سبع جزر تائهة في محيط المأساة.. وفيما تتثاءب المسافة وتتمدَّد بين «الرقم» والآخر، بين الجزيرة والأخرى، وفيما يتثاءب

الوطن المقاتل

حسين مروّة

تحت هذا العنوان العام (الوطن المقاتل) كان حسين مروّة يكتب زاوية يوميّة في جريدة «النداء» طوال أيّام حصار بيروت (أوائل حزيران حتّى أواخر آب ١٩٨٢). وكان لهذه الزاوية فاعليتها الكبيرة، يوميّاً، في صفوف المقاتلين المدافعين عن المدينة وفي صفوف ناس بيروت الصامدين. وقد أخترنا لهذا الملفّ عدّة نماذج من مقالات هذه الزاوية الأدبيّة المقاتلة:

وتتمدَّد كلّ لحظة.. لكأنّما السبعة «الشخوص» يؤلّفون سبع جزر متناثرة في جنوب الباسيفيك..

كان الصمت الجليدي وحده يصل «الجزر السبع».

واحد منّا وحده كان يشق جليد الصمت، كلّ ربع ساعة، عبر «الراديو».. وعلى مسافة الدقائق الفاصلة بين نشرة أخبار هنا ونشرة أخبار هناك، كان يحصي الثواني بإحصاء دقّات قلبه.. كان يسمع الأخبار وحده، ويبقى جليد الصمت بيننا وبينه متماسكا لا ينكسر: يسمع بضجر، وينظر وهو يسمع بضجر، فإذا انتهت نشرة من النشرات، لوى عنقه بضجر.. ثمّ استرخى من جديد يحصي الثواني الجديدة لموعد إذاعي جديد..

كان كمن يطلب من الإذاعات أن تقدّم له، كل ربع ساعة، تغييراً ما في مجرى المأساة.. وأن تضع بين يديه «تقريراً» شافياً عمّا أحدثت من تغيير جديد في أحد فصول المأساة..

كان يضع «مهمّة» التغيير في «دقّة» الإذاعات!..

* * *

الليل ـ أيضاً ـ ويتمدَّد، طُرق الباب، وانتبه «الساهرون» ـ فجأة ـ على قامة بشريّة سمهريّة تنتصب بينهم على قاع الصمت الجليدي..

صاحب القامة السمهريّة يعرفه «الساهرون» السبعة.. كلّنا نعرفه: هو واحد منّا، هو فصل طريف من فصول «قضيّتنا» ـ الملهاة.. هو فصلها الأكثر طرافة والأوفر حيويّة.. قلنا له: المأساة؟.. صاحب «الراديو» هو الذي قال، وكان قد أغلق الليل عنه كلّ الأبواب الإذاعيّة..

وجلس صاحب القامة السمهريّة وتفرَّس وجوه «الساهرين» فرأى كيف كنّا «ساهرين»:

ـ المأساة؟.. هي ـ بالفعل ـ مأساة هائلة، عمياء، طاغية.. لكن، أريد أن أسأل أوّلاً: هل استسلم لها شعبنا؟ أي هل استقبلها راكعاً؟، أي هل انسحقت كلّ طاقاته البشريّة وكلّ قدراته الكفاحيّة؟ أي هل تحوَّل شعبنا إلى «أرقام» من البشر، لا تتحرَّك علاقة الوطن في أجسادها بعد؟.. وأن أسأل ثانياً: كيف نتعامل، منذ اليوم، مع هذا الواقع؟.. أي هل نركع له «كأمر واقع» محتوم لا مردّ له، أم علينا أن نخلق من طاقاتنا وقدراتنا غير المحدودة،

طاقات وقدرات تكون بوزن المأساة، لمقاومة المأساة؟.. أي لمقاومة الاحتلال النازي الجديد الوحش؟..

ـ أسألكم ولا أطلب منكم الجواب.. شعبنا نفسه أجاب عن هذه الأسئلة وعن كل سؤال يخطر لكم.. أجاب شعبنا وهو يقاوم زحف الصهاينة الوحوش، وأجاب وهو يثبت ثبات الأبطال في رفض ضغوط المحتلّين الغاضبين: عسكريّاً وسياسيّاً واجتماعيّاً.. وسيجيب دائماً بألف طريقة، مبتكراً ألف أسلوب لرفع كابوس الاحتلال الصهيوني ـ الأميركي.

شعبنا هو الجواب دائماً..

* * *

قال:

ـ بدأت سهرتنا ونحن سبع جزر تائهة في محيط الظلام والجليد.. وانتهت سهرتنا عند الفجر ونحن جزء من البحر العظيم.. من الشعب العظيم. □

«النداء»
(الأحد ٢٧ حزيران ١٩٨٢)

مقاتل يحكي فكره

□ كان عائداً من «عمليّة» قتاليّة ناجحة..

كانت «العمليّة» خلف خطوط العدو، في مكان ما على جبهة الضاحية(...). واستخدم الفريق الذي نفّذ «العمليّة» شكل «الكمين» باتقان وبدقّة وبفدائيّة ممتازة.. ونجح «الكمين» دون خسائر..

* * *

حالة المقاتل، بعد كلّ «عملية» ناجحة، هي أصفى حالاته..

وفي هذه الحالة يتمتّع بنشوة النجاح أوّلاً.. وبهدوء النفس وصفاء الفكر ثانياً.. هي حالة من «الاستجمام» النفسي ـ الفكري قد تحرّك المقاتل لعمل شيء ما يسجّل هذه اللحظة، ذات النبض «الرومانسيّ» بشكل تصوّرات شاعريّة نادرة الرهافة والعذوبة، أو بشكل رؤية «فكريّة» صافية وعميقة تميّزها حرارة التجربة الطازجة..

* * *

كان «سالم» في أفق تلك الحالة، حين أقبل عليه أحد الرفاق بذراعيه فرحاً بنجاح «العملية» وبسلامته..

قال «سالم»:

ـ إنّي الآن محتاج أن أقول شيئاً وأن يسمعني أحد الرفاق.. أريد أن أقول: نحن أقوياء، أقوى مما يتصوّر الذين لا يعرفون تجربتنا هنا، خلف خطوط العدو.. نحن أقوى من العدو المحتلّ.. لا تضحك يا «سعيد»: نحن أقوى منه حقيقه، لا ادّعاء ولا كذباً على النفس أو خداعاً لها.. لا أقول هذا متأثّراً بالنشوة العابرة، أو بنجاح «عملية» جزئيّة صغيرة ليس لها تأثير مباشر، أو غير مباشر، على الواقع ـ الكلّ..

ـ أنا أعرف، وأرى هذه الآلة الحربيّة الأميركيّة البالغة التطوُّر، المتدفّقة طوفاناً طاغياً على أرضنا وجوّنا وبحرنا، حاملاً مطامع اسرائيل وسياسة الأمبرياليّة الأميركيّة.. وأنا أعرف وأرى أن قدرتنا العسكريّة الماديّة الملموسة، مضحكة ومثيرة للسخر إذا قسناها بهذا الطوفان، أي إذا اقتصرت المقارنة على مقايسة آلة بآلة، أو مقايسة حديد بحديد.. لكن المسألة ليست على هذا المستوى الساذج من المقارنة.. صحيح، يا «سعيد» أنّ «الطوفان» العسكري الاسرائيلي ـ الأميركي، قد احتوى طاقاتنا العسكريّة، وطغى على مساحات كبيرة من وطننا، لكن حتّى لو كانت المقايسة على أساس الآلة والمعدن والكتلة وحدها، لكان لنا الحقّ أن نفخر بأنّ قدراتنا الضئيلة، بهذا المقياس، قد فعلت الأعجوبة ثباتاً وقتالاً ومهارة عسكريّة وبطولة فائقة..

ـ أقول يا «سعيد» صحيح، أنّ «الطوفان» هذا قد وضعنا أمام «الأمر الواقع»، أي أمام هذا الاحتلال الغاصب البغيض، لكن من هنا نبدأ.. فالاحتلال ليس النهاية، بل علينا أن نقرّر لأنفسنا، منذ الآن، أنّه البداية، أي بداية مرحلة نوعيّة جديدة من النضال.. والنضال، بمفهومه الجديد في ظلّ الاحتلال، هو: مقاومة الاحتلال..

ـ دعني، يا «سعيد» أتابع أفكاري.. دعني أقول كلّ ما استفدته من «العمليّة» القتاليّة الناجحة اليوم.. بفضل هذه التجربة الطازجة، أمكنني أن أتصوّر القضيّة بوضوح كامل، أعني قضيّة كيف يمكن لشعب أن يقهر جيشاً يحتلّ أرضه وحياته، مهما يكن هذا الجيش المحتلّ من الجبروت العسكري.. إن جنود الاحتلال من شأنهم دائماً أن يسكن الرعب جلودهم كلّ لحظة وعند كلّ خطوة لهم في الأرض المحتلّة، ما داموا في أرض يشعر شعبها أنّها مغتصبة، وأنّ لا بدّ لهم أن يطهّروها من رجس الاحتلال ومهانة الاغتصاب..

* * *

«سالم» كان يحكي فكره بصفاء وهدوء وثقة..

لكن، من يصدِّق أنّه كان وراء هذا الصفاء وهذا الهدوء وهذه الثقة، فاجعة؟..

لقد كان «سالم»، وهو عائد من «العمليّة» القتاليّة الناجحة، قد عرف بفاجعة نزلت بأهله أثناء إحدى الغارات الجويّة الوحشيّة الاسرائيليّة على الأحياء السكنيّة المدنيّة في بيروت..

* * *

هذه الطاقة الخارقة التي جمعت بين فكر قتالي ثوري يحكيه مقاتل هكذا بصفاء وهدوء وثقة، وبين جرح الفاجعة في أعماقه ـ إنّ هذه الطاقة الخارقة ليست طاقة فرد بعينه.. إنّها ظاهرة.. إنّها طاقة شعبنا.. □

«النداء»
(٢٨ حزيران ١٩٨٢)

في «الملجأ»...

□ قالت أمّ نزار:

ـ لماذا نموت وحيدين هنا؟.. لماذا لا نكون مع النّاس في مدخل «البناية» لنموت مع النّاس؟..

قلت لها:

ـ بل لماذا نعيش وحيدين هنا؟.. لماذا لا نكون مع النّاس في مدخل «البناية»، لنعيش مع النّاس؟.

واتفقنا أن نعيش، لا أن نموت.. وأن نعيش مع النّاس، لا أن نعيش وحيدين..

وبقينا «عائشين» فعلاً مع النّاس تسع عشرة ساعة في مكان واحد من «البناية» اتفقنا جميعاً على تسميته بـ «الملجأ» لأنّه المكان الوحيد الأقلّ تعرّضاً للخطر..

* * *

الوجوه كثيرة في «الملجأ»..

الكثرة هنا ليست كثرة «كميّة»، بل كثرة «كيفيّة».. فإنّ التنوّع «الكيفي» للوجوه الطيّبة هنا، كان هو الأكثر بروزاً في هذا العيش المشترك، والاضطراري، وأكاد أضيف: «والجميل».. ولماذا أقول: «أكاد»؟.. لقد كان «عيشنا» ذاك جميلاً دون تحفّظ..

كان «عيشاً» جميلاً لي، بالأقلّ.. كان لي مدخلاً ميسوراً إلى عالم إنساني كثير التنوّع.. عالم تتنوّع محتويات أعماقه وسطوحه، وتتنوّع أشكال تعبيره عن المشاعر الذاتيّة السريّة، وهي في حالة استنفار وتوتّر.. ففي حالة استثنائيّة كهذه تنزاح كلّ الأغطية وكلّ الأقمطة عن هذه المشاعر، فإذا بها تعبّر عن نفسها بتلقائيّة خالصة، وتتصرّف حيال الواقع الضاغط «ردود فعل» غريزيّة مطلقة..

المشاعر، هنا، عارية.. لا وقت عندها للبحث عن لغة معيّنة وسلوك معيّن تستتر بهما وتتجمّل كما تفعل في حالاتها غير الاستثنائيّة، أي حين تكون غير مستنفرة ولا متوتّرة..

* * *

على الطبيعة، وبالرؤية المباشرة، رأيت ـ هنا ـ مشاعر «النّاس» الوطنيّين، كيف هم وطنيّون بالعمق وبالجذور.. رأيتهم، هنا، كيف تتحوّل الوطنية عندهم إلى جذر يتعمّق في الكيان البشري حتى يصبح الجذر نفسه هو الفكر وهو الشعور في وقت معاً، وحتى تزول فيه «ثنائيّة» الفكر والشعور. لكنّ الشعور يبقى شعوراً برهافته ونبضه وحنانه، والفكر يبقى فكراً بمنطقه ومفاهيمه وتحليله وتركيبه ومعادلاته واقتناعاته..

ليس هذا كلام بالمحال.. إنّه كلام بالواقع الأكثر واقعيّة ورسوخاً.. إنّه الكلام بالوطنيّة التي تفكّر وتقتنع، والتي تشعر وتنبض بكلّ ما في النسيج البشري من نبض..

إن علاقة التفاعل، هنا، بين الوطنيّة ـ الفكر، والوطنيّة ـ الشعور، تكسب الفكر رهافة الشعور وحرارة نبضه وعذوبة حنانه، بقدر ما تكسب الشعور رؤية الفكر المضيئة النفّاذة.

* * *

هذه الوطنيّة التي تفكّر وتشعر بحركة واحدة، ومن مصدر واحد، رأيت صورتها على الطبيعة وبالرؤية المباشرة متجسِّدة حيّة بأشخاص عشت معهم ١٩ ساعة في الملجأ.. رأيت الصورة جسداً إنسانيّاً يحيا الوطنيّة شعوراً مفكّراً وفكراً نابضاً بالشعور رهيفاً وحنوناً..

هذه الصورة ـ الجسد: رأيتها لحظات الخطر الأشدّ بأعصاب فولاذيّة، لكن بقلب مفعم بحضور الوطن المحدّق به الخطر.. أي أن الصورة ـ الجسد كانت تهتزّ للخطر الوطني، ولا تهتزّ للخطر الشخصي.. رأيت فيها المرح يؤنس جماعة الملجأ ويخفّف ثقل القلق عن صدورهم حتّى إذا أحسّت في الأخبار، أنّ خطراً ما قد يصيب قضيّة الوطن، رأيت الصورة ـ الجسد ترتعش ارتعاشة عميقة لا يحسّها الجماعة، ثمّ تعود إلى المرح يؤنس ويخفف.. □

«النداء»
(الأحد ٨ آب ١٩٨٢)

هذه بيروت.. أيّها العالم!!

□ أيّها العالم!!

أناديك لا مستنجداً، لا مستغيثاً، لا مسترحماً، ولا طالب أسعاف أو معونة أو.. أو..

شعبنا يستكبر أن يناديك، أيّها العالم، لأمر من مثل هذه الأمور.. لأنّه شعب عرف بتجربته النادرة المثال، أنّ ما تدخره الشعوب في كيانها الداخلي الذاتي من طاقات وقدرات، هو الأصل الذي لا يغني عنه، من خارج ذاتها، أقوى القوى، ولا أغنى الغنى، ولا أعظم الطاقات الماديّة والمعنويّة..

أناديك، أيّها العالم، لأمر واحد وحيد: أن ترفع رأسك نحو هذا الجبل العظيم الرابض هنا على هذا الشاطئ المشتعل بقدر كرة الشمس.. أن ترفع رأسك نحو هذه المدينة ـ الجبل، الواقفة على هذا الشاطئ، واسمها: بيروت.. لكن أعداء وحدة الوطن أرادوها: «بيروت الغربيّة»..

ارفع رأسك، أيّها العالم، وانظر.. لترى بيروت كيف وقفت يوم أوّل أمس (الخميس ١٩٨٢/٨/١٢) .. لترى مدينتنا، وهي التي تضيق ـ مساحة ـ حتّى تكاد لا تعادل جزءاً صغيراً جدّاً من نقطة ميكروسكوبيّة في خارطة الأرض، كيف وقفت كبيرة كبيرة، وسيعة وسيعة، بحجم هذا الكوكب، وبسعة مداه الفضائي..

أيّها العالم!.

هل رأيت بيروت: كيف وقفت طوال إحدى عشرة ساعة كاملة متواصلة، والهمجيّة الصهيونيّة تطبق عليها بكلّ ما زوّدتها به إدارة ريغان الأميركيّة من أحدث آلات الإبادة للإنسان وللحضارة والعمران؟..

لعلّ الهمجيّة الصهيونيّة كان يراودها خاطر لم يكن خاطراً، بل كان وهماً أحمق طائشاً، وخائباً..

لقد أجهدت اسرائيل آلتها العسكريّة، بأصنافها الثلاثة، الجوّيّة، والبحريّة، والبرّيّة، وأجهدت جنودها حتّى الارهاق، طوال نهار صيفي، كامل متواصل، وهم يصبّون حمم البراكين «الصناعيّة» على بيروت «غير المحتلّة».. لماذا؟.

الهمجيّة الصهيونيّة، لم تجهد عسكريتها كلّ ذلك الإجهاد الرهيب، إلّا وهي تحت كابوس الوهم الأحمق الطائش الخائب الذي أدخل في رأسها، النازي النزعة، أنّ بيروت «غير المحتلّة» ستنحني.. سترفع يديها ناشرة رايات الخضوع والاستسلام!.

لكن بيروت، وقفت كالمعجزة، كالأسطورة..

لكن بيروت وقفت، وما انحنت..

أناديك، أيّها العالم، لترى: أيّة معجزة، أيّة أسطورة كانت بيروت في وقفتها تلك، في يومها ذاك؟..

أناديك، أيّها العالم، لتشهد أنّها أوّل مرّة في تاريخ البشريّة، وفي تاريخ حروب البشريّة، تعرف فيها مدينة بهذا الحجم، وفي ظروف حصار جهنّمي كالحصار المضروب عليها بهذا الشمول، تتلقّى هذا القدر المذهل من الغارات والقذائف، من الجوّ والبحر والبرّ، طوال هذا المقدار المذهل من الزمن أيضاً، وتبقى واقفة لا تنحني، لا تخضع، ولا تستسلم، بل تبقى واقفة بكبرياء وشموخ..

أيّها العالم!

لا أناديك إلّا لترى وتشهد، ولأقول لك: شكراً. □

«النداء»

(الأحد ١٥ آب ١٩٨٢)